الباب الرابع

المرأة في محراب العبوية لله

الفصل الأول

مدخل إلى مفهوم العبودية

قال الإمام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالىٰ ـ في تعريف وبيان معنىٰ العبودية :

العبادة : هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة .

فالصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وبرُّ الوالدين ، وصلة الأرحام ، والوفاء بالعهود ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والجهاد للكفار والمنافقين ، والإحسان للجار واليتيم ، والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم ، والدعاء والذكر والقراءة ، وأمثال ذلك من العبادة وكذلك حب الله ورسوله ، وخشية الله والإنابة إليه ، وإخلاص الدين له ، والصبر لحكمه ، والشكر لنعمه ، والرضا بقضائه ، والتوكل عليه ، والرجاء لرحمته ، والخوف من عذابه ، وأمثال ذلك هي من العبادات لله .

وذلك أن العبادة هي الغاية المحبوبة له ، والمرضية له ، التي خلق الخلق لها ، كما قال تعالىٰ :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

وبها أرسل جميع الرسل ، كما قال نوح ـ عليه السلام ـ لقومه :

﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف : ٥٩] .

وكما في قوله تعالىٰ :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ ﴾ [النحل : ٣٦] .

وجعل ذلك لازماً لرسوله ﷺ إلىٰ الموت ، كما قال :

﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر : ٩٩] .

وبذلك وصف ملائكته وأنبياءه ، فقال تعالىٰ :

﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٩ـ٢٠] .

وذمّ المستكبرين عنها ـ أي عن العبادة ـ بقوله :

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر : ٦٠] .

ولما قال الشيطان :

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر : ٣٩ـ٤٠] .

قال الله تعالىٰ :

﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحجر : ٤١ـ٤٢] .

وقال تعالىٰ ، وهو يعمّم العبودية علىٰ جميع مخلوقاته :

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾

﴿لَقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم : ٨٨ـ٩٥] .

وقال تعالىٰ عن المسيح ـ عليه السلام ـ الذي ادعيت فيه الإلهية والبنوّة :

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَـٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الزخرف : ٥٩] .

وقد نعت الله تعالىٰ نبيه محمداً ﷺ بالعبودية في أكمل أحواله ، فقال تعالىٰ :

﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء : ١] .

وقال في الإيحاء :

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم : ١٠] .

وقال في الدعوة :

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن : ١٩] .

وقال في التحدي :

﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة : ٢٣].

إذن :

فدين الله : عبادته وطاعته والخضوع له .

وبالتالي ، فكل من استكبر عن عبادة الله ، لا بد أن يعبد غيره ، ويذل له .

وإذا كان عبداً لغير الله كان لا بد مشركاً ، وكل مستكبر فهو مشرك ، لهذا كان فرعون أعظم الخلق استكباراً عن عبادة الله ، وكان مشركاً ، قال تعالىٰ :

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ [القصص : ٤] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر : ٢٣ـ٣٥] .

وقال تعالىٰ في اليهود :

﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة : ٨٧] .

وقال تعالىٰ في النصارىٰ :

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣١] .

وقال تعالىٰ :

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ [الأعراف : ١٤٦] .

ولم تفرّق الشريعة الإسلامية بين الرجل والمرأة في مجال العبودية ، ولم تنظر إلىٰ الرجل علىٰ أنه الشخص الذي يستحق العبودية لله أكثر!! ولم تؤخر المرأة في هذا المجال ، والأدلة العملية علىٰ ذلك كثيرة ، ولا مجال لحصرها ، إنما سنستعرض بعضاً منها ليكون لنا بذلك الدليل الكافي علىٰ نظرة الإسلام للمرأة والرجل علىٰ السواء :

* * *

الفصل الثاني

المرأة.. والمسجد

عندما أورد بيان الله تعالىٰ الحديث عن المساجد ، لم يميز بين أن يكون من روادها الرجال من النساء ، إنما كان الحديث عاماً ، يستوي فيه الرجل والمرأة ، من ذلك قوله تعالىٰ :

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [التوبة: ١٨].

والإيمان بالله واليوم الآخر ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والخشية من الله تعالىٰ ، إنما هي صفات تحملها الأنثىٰ كما يحملها الرجل ، وقد تجد في الحياة نساءً يتمتعن بهذه الصفات أكثر بكثير من رجالٍ ذوي لحىً وشوارب!!

ومن ذلك قوله تعالىٰ :

﴿ ۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف : ٣١] .

ومن ذلك قوله تعالىٰ :

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٩] .

وعلىٰ هذه الخطوات سار النبي الأكرم ﷺ ومن معه من الصحابة ، ومن ثم التابعون ومن بعدهم .

وقد ورد في ذلك آثار كثيرة لا مجال لذكرها كلها ، إنما نشير إلىٰ ما يلي :

ـ ورد في صحيح الإمام البخاري ، في باب الجماعة والإمامة :

عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ ذهب إلىٰ بني عمرو بن عوف ليُصلح بينهم ، فحانت الصلاة ، فجاء المؤذن إلىٰ أبي بكر ، فقال : أتصلي للناس فأقيم ؟

قال : نعم ، فصلىٰ أبو بكر ، فجاء رسول الله ﷺ والناس في الصلاة ، فتخلّص حتىٰ وقف في الصف ، فصفق الناس ، وكان أبو بكر لا يلتفت في صلاته ، فلما أكثر الناس التصفيق التفت ، فرأىٰ رسول الله ﷺ ، فأشار إليه رسول الله ﷺ : (أن امكث مكانك) ، فرفع أبو بكر رضي الله عنه يديه ، فحمد الله علىٰ ما أمره به رسول الله ﷺ من ذلك ، ثم استأخر أبو بكر حتىٰ استوىٰ في الصف ، وتقدّم رسول الله ﷺ فصلىٰ ، فلما انصرف قال : « يا أبا بكر ، ما منعك أن تثبت إذ أمرتك » فقال أبو بكر : ما كان لابن أبي قحافة أن يصلّي بين يدي رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « ما لي رأيتكم أكثرتم التصفيق ، من رابه[1] شيء في صلاته فليسبِّح ، فإنه إذا سبَّح التُفّت إليه ، وإنما التصفيق للنساء »[2] .

إنه دليل واضح علىٰ حضور النساء في المساجد ، وأنه يتوجب عليهم إذا غلط الإمام أن يصفقن بدل التسبيح .

---

(١) أي : من أصبح في شك ، وفي رواية (من نابه) أي : من أصابه .

(٢) رواه البخاري (٣٨٥) ، ومسلم (٤٢١) .

ـ وهناك أحاديث نبوية شريفة تدلُّ علىٰ حضور النساء في المساجد ، من ذلك قول سيدنا رسول الله ﷺ : « خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها ، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها »[1] .

ومنها ما روته أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها : (أن النساء في عهد رسول الله ﷺ كنّ إذا سلمن من المكتوبة ، قمن وثبت رسول الله ومن معه من الرجال ما شاء الله ، فإذا قام رسول الله قام الرجال)[2] .

ومنها ما روته أم عطية رضي الله عنها : (أمرنا رسول الله ﷺ أن نخرجهن ـ أي النساء ـ في الفطر والأضحىٰ ، العواتق والحيّض وذوات الخدور ، فأما الحيّض فيعتزلن الصلاة ويشهدن الخير ودعوة المسلمين)[3] .

ومنها ما رواه أبو سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ : (خرج رسول الله ﷺ في أضحىٰ أو فطر إلىٰ المصلىٰ ، فمرّ علىٰ النساء ، فقال : « يا معشر النساء تصدّقن ، فإني رأيتكن أكثر أهل النار » ، فقلن : وبم يا رسول الله ؟ قال : « تكثرن اللعن وتكفرن العشير ، وما رأيت من ناقصات عقلٍ ودين أذهب للُبِّ الرجل من إحداكنّ » .

قلن : وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله ؟

قال : « أليس شهادة المرأة نصف شهادة الرجل ؟ » .

قلن : بلىٰ .

---

(١) رواه مسلم (٤/ ١٥٩) ، وأبو داود (٦٧٨) ، والنسائي (٢/ ٧٣) وأحمد (٢/ ٤٧) .

(٢) رواه البخاري (٢/ ٤٩٣) ، وابن ماجه (٩٣٢) ، وأحمد (٦/ ٣١٠) .

(٣) رواه أبو داود (١١٣٦) ، وابن ماجه (١٣٠٧) .

قال : « فذلك من نقصان عقلها ، أليست إذا حاضت لم تصلِّ ولم تصم ؟ » .

قلن : بلىٰ .

قال : « فذلك من نقصان دينها »[1] .

ومنها ما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « إذا استأذنتْ أحدكم امرأتُهُ إلىٰ المسجد فلا يمنعها » .

فقال بلال بن عبد الله : والله لنمنعهنّ!!

فأقبل عليه عبد الله ، فسبَّه سبّاً ما سمعت مثله قط ، وقال : أخبرك عن رسول الله ﷺ وتقول : والله لنمنعهنّ[2]!!

حتىٰ إن الأمر وصل إلىٰ أبعد من هذا بكثير ، فهذ المسجد النبوي له عدة أبواب ، وكان الرجال والنساء يخرجون من هذه الأبواب سويّة ، ولم يعترض أحد ، حتىٰ قال النبي ﷺ ذات يوم : « لو تركنا هذا الباب للنساء » وأشار بيده الشريفة إلىٰ أحد هذه الأبواب ، عندها التزم الصحابة الأكارم بهذا التوجيه النبوي ، يروي نافع : أن عبد الله بن عمر لم يدخل من هذا الباب حتىٰ مات[3] .

إنها الأواصر المتينة بين المرأة المسلمة وبين المسجد ، تذهب إليه لتعبد فيه الله تعالىٰ ، لتسمع القرآن الكريم ، ولتصغي إلىٰ أحاديث النبي الشريف ، وإلىٰ المواعظ والحكم :

يحدثنا التاريخ عن أم هشام بنت حارثة رضي الله عنها أنها كانت

---

(١) رواه البخاري (١/ ٤٢١) ، ومسلم (٢/ ٦٧) ، وأحمد (١/ ٤٢٣) .

(٢) رواه البخاري ، ومسلم (٢/ ٦٧) ، وأحمد (١/ ٤٢٣) .

(٣) وما زال في المسجد النبوي الشريف باب يقال له : باب النساء ، حتىٰ هذه الأيام .

تحضر صلاة الجمعة في المسجد النبوي ، وأنها قالت ذات مرة : ما أخذت ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ ـ أي ما حفظت هذه السورة ـ إلا من لسان النبي ﷺ يقرأ بها علىٰ المنبر في كل جمعة ! !

وإن لم تجد المرأة ثوباً لتخرج إلىٰ الصلاة في المسجد فما عليها إلا أن تستعير ثوباً تخرج به ، وهذا ليس بدعةً أو مناداةً إلىٰ التحرر ، إنما هو من تعاليم سيدنا محمد ﷺ ! !

نعم ، لقد عنون الإمام البخاري هذا الموضوع بقوله : إذا لم يكن لها جلباب في العيد ، وأورد تحت ذلك رواية عن حفصة بنت سيرين أنها قالت : كنا نمنع جوارينا أن يخرجن يوم العيد ، فجاءت امرأة فنزلت قصر بني خلف ، فأتيتها ، فحدثتني أن زوج أختها غزا مع النبي ﷺ اثنتي عشرة عزوة ، فكانت أختها معه في ست غزوات ، قالت : فكنا نقوم علىٰ المرضىٰ ونداوي الجرحىٰ ، فقالت : يا رسول الله : هل علىٰ إحدانا من بأس إذا لم يكن لها جلباب ألا تخرج إلىٰ العيد ؟ فقال : لتلبسها صاحبتها من جلبابها ، فليشهدن الخير ودعوة المؤمنين .

قالت حفصة : فلما قدمت أم عطية أتيتها فسألتها ، فقالت : أسمعت في كذا وكذا ؟ قالت : بأبي ، قال النبي ﷺ : « ليخرج العواتق وذوات الخدور ، وليعتزل الحيّض المصلىٰ ، وليشهدن الخير ودعوة المؤمنين » .

إذن :

هذه هي سيرة الأسلاف ، فقد كانت النساء تخرجن إلىٰ المساجد في كل الأحوال ، حتىٰ في حالة العذر ـ كالحيض ونحوه ـ وكنّ يشهدن الخطبة والصلاة والمنافع الكثيرة من جرّاء ذلك .

بل كثيراً ما كان المصطفىٰ صلوات الله عليه يرسل بلالاً إلىٰ النساء .

ليجمع الصدقات منهن ، بعد أن يستمعن إلىٰ وعظ رسول الله وأمره للرجال والنساء بأن يتبرعوا ويتصدقوا .

لكن ماذا حدث بعد ذلك ؟!

بَعُد المسلمون عن دينهم الحنيف ، فآل الأمر بينهم إلىٰ التخلف والانحطاط ، فتركوا القرآن الكريم ، وسنة النبي ﷺ ، وراحوا يأخذون أمورهم من هنا وهناك ، وتحت غطاء الجهل تارة ، والغيرة تارة أخرىٰ ، أفتىٰ بعضهم بتحريم خروج النساء إلىٰ المساجد!!

وتوارث المسلمون ذلك ، إلىٰ أن وصلنا إلىٰ ما نرىٰ!!

حُرمت المرأة من الخروج إلىٰ المسجد ، وأُبعدت عن التعلم والوعظ والنفقة ، ولم تعد تعرف واجبها تجاه خالقها ، وتجاه والديها ، وتجاه زوجها ، وتجاه أولادها ، وتجاه مجتمعها!!

لكن الغريب حقاً أن المرأة في عصرنا خرجت من بيتها ، وذهبت إلىٰ المدرسة ، ذهبت إلىٰ الجامعة ، ذهبت إلىٰ السوق ، ذهبت إلىٰ العمل ، ذهبت إلىٰ السينما! وإلىٰ أماكن شتىٰ . . . ولكن المكان الوحيد الذي لم تذهب إليه كما ينبغي هو المسجد!

لماذا لا تذهب المرأة إلىٰ المسجد ؟ كل نساء العالم يذهبن إلىٰ معابدهن : النصرانية تذهب إلىٰ الكنيسة ، اليهودية تذهب إلىٰ البيعة ، والهندوسية تذهب إلىٰ المعبد ، كل صاحبة دين تذهب إلىٰ مكان عبادتها ، فلماذا لا تذهب المرأة المسلمة إلىٰ المسجد ؟ لماذا لا تهيأ دروس منتظمة للنساء ؟ لماذا لا تحضر الجمعة والجماعة[1] . ؟!

ثم تعالوا نتساءل : إذا لم تذهب النساء إلىٰ المساجد ، فإلىٰ أين

---

(١) للتوسع يراجع كتاب مسلمة الغد للدكتور يوسف القرضاوي : ١٤ .

يذهبن ؟ ومن أين يتثقفن ؟ ومن أين يستمعن المواعظ والخطب والدروس والأحكام الفقهية والأحاديث النبوية ؟!

أنترك النساء للقيل والقال ؟! أنتركهن لوسائل الإعلام ـ المرئية منها والمسموعة ـ ؟! أنتركهن لوساوس شياطين الإنس والجن ؟!

رحم الله الإمام ابن حزم حينما أراح نفسه وأراح من بعده ، حينما كذَّب أحاديث منع النساء من الصلاة في المساجد ، وعدّها من الباطل!!

إنك لن تجد حديثاً صحيحاً متواتراً يمنع النساء من الحضور إلىٰ المساجد ، فإن سمعت حديثاً في ذلك ، فاعلم أنه يخالف السنة العملية المتواترة والمشهورة ، ثم إنه يخالف ما كان عليه الخلفاء الراشدون ، ومن بعدهم من الصحابة والتابعين .

كم تقرأ في كتب الصحاح والسنن من أحاديث نبوية مشهورة ومتواترة تبيّن أن سيدنا المصطفىٰ عليه الصلاة والسلام حضّ علىٰ الصلاة في مسجده الشريف ، ولم يخصص ذلك للرجال دون النساء! ؟

وكم تقرأ في كتب الأحاديث والسير من أن النبي ﷺ خفَّف من الصلاة عندما سمع بكاء رضيع مع أمه ، وذلك لكي لا ينشغل قلبها عليه ؟!

وكم سمعنا وقرأنا في سيرة الفاروق عمر رضي الله عنه أنه كان يخطب بالناس ذات يوم ، فاقترح علىٰ الناس أن لا يكثروا من المهور ، فقامت إليه امرأة من المسجد ، وردَّت عليه مستدلةً بآيات من كتاب الله تعالىٰ ، عندها تراجع عمر قائلاً : أمير يخطىء ، وامرأة تصيب ، كل الناس أفقه منك يا عمر!!

هل نأخذ ونقتدي بسنة رسول الله ﷺ ، وسيرة الخلفاء الراشدين ، أم نأخذ بأهواء البعض و . . . ! ؟

لقد سطر تاريخنا السامق أحداثاً ووقائع من سيرة الصحابيات والتابعين

والمؤمنات ، وفي ذلك عبر وعظات لمن كان له قلب أو ألقىٰ السمع وهو شهيد :

ـ عن القاسم قال : كنت إذا غدوتُ أبدأ ببيت عائشة ـ رضي الله عنها ـ أُسلِّم عليها ، فغدوت يوماً فإذا هي قائمة تسبّح وتقرأ :

﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الطور : ٢٧] .

وتدعو ، وتبكي ، وترددّها ، فقمت حتىٰ مللتُ القيام ، فذهبتُ إلىٰ السوق لحاجتي ، ثم رجعتُ فإذا هي قائمة كما هي ، تصلي وتبكي[1] .

أليست السيدة عائشة من النساء ؟ ومن أين تعلمت هذه العبادة لله ؟ وكيف عاشت مع الصلاة والمناجاة إذا لم تحضر مجالس العلم والفقه في المسجد ؟!

ـ وتلكم معاذة العدوية ـ رحمها الله تعالىٰ ـ كانت إذا جاء النهار قالت : هذا يومي الذي أموت فيه ، فما تنام حتىٰ تُمسي!

وإذا جاء الليل قالت : هذه ليلتي التي أموت فيها ، فلا تنام حتىٰ تُصبح!

وإذا جاء البرد ، لبست الرِّقاق حتىٰ يمنعها البرد من النوم! وكانت تحيي الليل صلاةً ، فإذا غلبها النوم ، قامت فجالت في الدار وهي تقول :

يا نفسي! النوم أمامك لو قدمت لطالت رقدتُك في القبر علىٰ حسرةٍ أو سرور ، وبقيت علىٰ ذلك حتىٰ الصباح ، وكانت تصلي في كل يوم وليلة ستمائة ركعة ، وتقرأ جُزءَها من الليل تقوم به ، وكانت تقول : عجبت

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي : ٢/ ٣١ .

لعينٍ تنام وقد عرفت طول الرُّقاد في ظلم القبور[1] .

هل بعد هذا المثال نقول إن المرأة أدنىٰ في نظر الإسلام من الرجل ؟! إنها عرفت فغرفت!! إنها ذاقت حلاوة العبادة لله ، فقهرت نفسها وشهواتها ، وألجمت عواطفها ، وجمدت كل شيء تجاه أن تقف بين يدي الله سبحانه فرحمها الله ورضي عنها .

ـ وتلكم رابعة العدوية ، يحدثنا عنها سجف بن منظور فيقول :

دخلت علىٰ رابعة وهي ساجدة ، فلما أحسَّت بمكاني رفعتْ رأسها ، فإذا موضع سجودها كهيئة الماء المستنقع من دموعها!

فسلّمت ، فأقبلت عليَّ وقالت : يا بني ، ألك حاجة ؟

فقلت : جئت لأسلّم عليك .

قال : فبكت ، وقالت : سترك اللهم سترك ، ودعت بدعوات ، ثم قامت إلىٰ الصلاة ، وانصرفت[2] .

لو تساءلنا : ما سرُّ بكاء رابعة ، أهو مفارقتها للشهوة ؟ أهو ضياع العشيق والحبيب ؟! أهي الملذات و . . . ؟!

لا ، إنها امرأة عرفت ما تعني العبودية لله ، وأيقنت بلقائه و . . . فبكت خوفاً من الذنوب والآثام . . . فهل فعل ذلك كثير من أصحاب الشوارب واللحىٰ!!

ـ وأما حال (عجردة العميّة) فهو أمر عجيب وغريب!

قال رجاء بن مسلم العبدي : كنا نكون عند عجردة العميّة في الدار ، قال : فكانت تحيي الليل صلاةً ، وربما قال : تقوم من أول الليل إلىٰ

---

(١) صفة الصفوة : ٤/ ٢٢ .

(٢) صفة الصفوة : ٤/ ٢٨ .

السّحر ، فإذا كان السّحر ، نادت بصوت لها محزون : إليك قطع العابدون دُجىٰ الليالي بتبكير الدلج[1] إلىٰ ظلم الأسحار ، يستبقون إلىٰ رحمتك وفضل مغفرتك ، فبك إلهي لا بغيرك ، أسألك أن تجعلني في أول زُمرة السابقين إليك ، وأن ترفعني إليك في درجة المقربين ، وأن تُلحقني بعبادك الصالحين ، فأنت أكرم الكرماء وأرحم الرحماء ، وأعظم العظماء ، يا كريم .

ثم تخرُّ ساجدة ، فلا تزال تبكي وتدعو في سجودها حتىٰ يطل الفجر[2] !

ـ وأما (العابدة زَجْلة) فيحدثنا عنها أحمد بن سهل الأزدي فيقول : دخل علىٰ زجلة العابدة نفر من القرّاء فكلموها في الرفق بنفسها ، فقالت :

ما لي وللرفق بها ؟ فإنما هي أيام مبادرة ، فمن فاته اليوم شيءٌ لم يدركه غداً ، والله يا إخوتاه لأصليَّن ما أقلّتني جوارحي ، ولأصومن له أيام حياتي ، ولأبكينّ له ما حملتِ الماء عيناي !

ثم قالت : أيّكم يأمر عبده بأمر يحبُّ أن يقصِّر فيه[3] ؟

وأما عبَّاد بن عبَّاد أبو عتبة الخواص فيحدثنا عنها ـ أي عن زجلة ـ فيقول :

دخلنا علىٰ زجلة العابدة ، وكانت قد صامت حتىٰ اسودَّت ، وبكت حتىٰ عمشت ، وصلّت حتىٰ أُقعدت ، وكانت صلاتها قاعدة ، فسلّمنا عليها ثم ذكّرناها شيئاً من العفو ، أردنا أن نهوِّن عليها الأمر هناك ،

---

(١) أي : لقد قطع العابدون إلىٰ الله ظلمة الليالي بالسير في الليل إلىٰ ظلم الأسحار .

(٢) صفة الصفوة : ٤/ ٣٠ .

(٣) صفوة الصفوة : ٤/ ٤٠ـ٤١ .

فشهقت ثم قالت : علمي بنفسي قرّح فؤداي ، وكَلَم قلبي ، والله لوددتُ أن الله لم يخلقني ، ولم أكُ شيئاً مذكوراً ، ثم أقبلت علىٰ صلاتها ، وتركناها ، فخرجنا من عندها[1] .

ـ وأما (غنضكة العابدة) فيحدثنا عنها الإمام ابن الجوزي فيقول :

كانت امرأة بالبصرة يقال لها غنضكة العابدة ، تصلّي عامة الليل ثم تقول :

أعوذ بالله من ملائكةٍ غلاظٍ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، فإذا قضت صلاتها قالت : هذا الجهد مني وعليك التكلان .

ثم يروي لنا ابن الجوزي بالسند إلىٰ أبي الوليد العبدي قوله :

ربما رأيت (غضنة وعالية) تقوم إحداهما من الليل ، فتقرأ البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف في ركعة[2] .

ـ وتلكم هي (منيفة بنت أبي طارق) رحمها الله تعالىٰ :

يحدثنا عنها عامر بن مليك البحراني فيقول : حدثتني أمي فقالت : بتُّ ذات ليلة عند منيفة بنت أبي طارق ، فما زادت علىٰ هذه الآية من أول الليل إلىٰ آخره ، ترددها وتبكي :

---

(١) صفة الصفوة : ٤/ ٤٠ـ٤١ .

(٢) صفة الصفوة : ٤/ ٤١ .

وحبذا لو تأملنا حال هذه العابدة ، ونحن نفتح كتاب الله تعالىٰ ، لنتبين أن هذا المقدار من السور ـ التي قرأتها في ركعة واحدة ـ يساوي (٩) أجزاء أي (١٧٨) صفحة ، أي (١١٥٤) آية!!

فهل فعل ذلك الرجال ؟! لعمري إن المسألة ليست في الذكورة والأنوثة ، إنما المسألة هي بمقدار ما يقدّمه الإنسان من أعمال صالحة .

﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران : ١٠١] .

ـ وهذا أبو خالد القرشي يحدثنا عن واحدة من العابدات فيقول :

استأذنا علىٰ (عليلة بنت الكُميت) ، وكانت من العابدات .

قال : وذلك وقت الظهيرة ، فقالوا : هي تصلّي .

فلم نزل ننتظرها إلىٰ العصر ، فلما صلّت العصر ، أذنت لنا ، فدخلنا عليها فقلنا : رحمك الله ، لم نزل قعوداً منذ الظهر ننتظرك .

قالت : سبحان الله ، قعوداً لم تصلوا بين الظهرو العصر[1] !!

ـ ومن هناك يأتينا خبر (أخت الفضيل بن عبد الوهاب) رحمها الله تعالىٰ ، حيث كان أحب شيء إليها التهجد في الليل .

وعندما سألها أخوها عمَّا يعينها علىٰ عبادة ربها ، كان جوابها : الآخرة أقرب من الدنيا ، وذلك أن الرجل يهمّ بطلب الدنيا فلعله أن ينشىء لذلك سفراً يكون فيه تعبُ بدنه ، وإنفاق ماله ، ثم لعله أن لا ينال بغيته ، والرجل يطلب الآخرة فمنتهىٰ طلبته في حُسن نيته حيث ما كان من غير أن ينشىء سفراً ، أو ينفق مالاً ، أو يتعب بدناً ، ما هو إلا أن يُجمع علىٰ طاعة الله ، فإذا هو قد أدرك ما عند الله .

إنها امرأة لكنها تساوي الآلاف من الرجال ، تنظر إلىٰ الدنيا نظرة استحقار و . . . لا تبالي إن أتت الدنيا أو ذهبت ، إنها تبرر بيعها للدنيا فتقول :

ما بيننا وبين أن نرىٰ السرور ، أو ننادىٰ بالويل والثبور إلا خروج هذه الأرواح من الأبدان ، ، فانظروا أي عبيدٍ تكونون حينئذٍ !!

---

(١) صفة الصفوة : ٤/ ٤٥ .

ـ وأختم الكلام هنا بما قاله سيدنا رسول الله ﷺ :

« لا تمنعوا النساء من الخروج بالليل إلىٰ المساجد »[1] .

وفي الصحاح عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت : قال لنا رسول الله ﷺ : « إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمس طيباً » .

وعلَّق الشيخ محمد الغزالي علىٰ ذلك بقوله : منذ افتتاح المسجد النبوي بعد الهجرة إلىٰ أن لحق النبي عليه الصلاة والسلام بالرفيق الأعلىٰ والنساء يصلّين فيه ، والباب المخصص لهن لم يغلق قط! أي أنهن أدّين فيه بين سبعة عشر ألفاً وثمانية عشر ألف صلاة ، وهذا من المتواتر المستيقن الذي تتساقط حوله أخبار الآحاد فلا يُكثرن بها أو يقام لها وزن .

ـ وإن ما وقع علىٰ عهد رسول الله ﷺ امتد أيام الخلافة الراشدة ، وبقي المسجد النبوي معموراً بهن دون نكير ، بل إن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أمر سليمان بن أبي حثمة أن يؤم النساء في مؤخرة المسجد في شهر رمضان!

وروىٰ ابن حزم أن علي بن أبي طالب كان يأمر الناس بالقيام في رمضان ، فيجعل للرجال إماماً وللنساء إماماً ، قال (عرفجة) ـ الراوي ـ فأمرني ، فأممت النساء!

وروىٰ الزهري أن عاتكة بنت زيد زوجة عمر بن الخطاب كانت تشهد الصلاة في المسجد ، وكان عمر يقول لها : والله إنك لتعلمين أني ما أحب هذا!!

فقالت : والله لا أنتهي حتىٰ تنهاني! قال عمر : فإني لا أنهاك!!

---

(١) رواه الإمام مسلم .

ولقد طعن عمر ـ رضي الله عنه ـ يوم طعن ، وإنها لفي المسجد النبوي[1] .

فهل بعد هذه القصص والأحداث والأحاديث والوقائع نصغي إلىٰ من يريد أن يحرِّم علىٰ النساء الخروج إلىٰ المساجد ؟!

اللهم إنَّا نبرأ إليك مما يفعله المغرضون والجاهلون ، ونشهدك أنا سنسير علىٰ خطىٰ سيدنا محمد صلوات الله عليه ، وآله ، وصحبه ، والتابعين ، وفي هذا بلاغ ، وذكرىٰ لمن كان له قلب أو ألقىٰ السمع وهو شهيد .

* * *

(١) بتصرف واختصار من : قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة ص ١٩٦ـ٢٠٠ .

الفصل الثالث

المرأة.. ومناجاة الله تعالىٰ

ونحن نتحدث عن عبادة المرأة لله تعالىٰ ، لا بدّ من التوقف عند ظاهرة الدعاء والمناجاة لله سبحانه .

ذلك لأن القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ، وحياة الصحابة والتابعين ، ركزت علىٰ المناجاة والدعاء ، لما لها من فوائد للفرد والمجتمع .

وللدعاء فلسفة خاصة به ، تجمعها الآية القرآنية التالية :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ٤٠ـ٤٣] .

ثم يعطينا البيان الإلهي بعض النماذج عن أدعية الأنبياء :

فذاك سيدنا نوح ـ عليه السلام ـ بعد أن فعل به قومه ما فعلوا من العناد والصدّ والتكذيب يرفع شكواه مالك الملك فيقول :

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الأنبياء : ٧٦] .

وفي نفس السورة يذكر لنا مثالاً آخر هو سيدنا أيوب ـ عليه السلام ـ ومناجاته لله تعالىٰ :

﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٣ـ٨٤] .

وأما سيدنا موسىٰ ـ عليه السلام ـ فيتوجه إلىٰ البارىء المصور قائلاً :

﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص : ٢٤] .

وكذلك سيدنا زكريا ـ عليه السلام ـ يتوجه إلىٰ الله تعالىٰ ، فيصفه القرآن :

﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾

[الأنبياء : ٩٠] .

وعلىٰ هذا المنوال سار جميع الأنبياء ثم من بعدهم الصالحون إلىٰ يوم الدين ، لكن هل هذا الأمر اختص به الرجال دون النساء ؟

أبداً ، فقد سطر التاريخ قصصاً وأحداثاً تبين أن المرأة كان لها الباع الطويل في مجال الدعاء والمناجاة ، مثلها مثل الرجل ، ولن نستطيع حصر هذه الأمور في عدة صفحات ، لكن سنكتفي بسرد بعضها لما فيها من العبر والعظات :

ـ أورد الإمام ابن الجوزي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ الكثير الكثير من قصص هؤلاء النساء اللاتي اشتهرن في ميدان المناجاة والدعاء من ذلك :

ما رواه أبو المورق قال حدثني من سمع (نقيش بنت سالم) بمكة وهي تقول :

يا سيّد الأنام ، رحَلت بي الشُّقة ، وهذا مقام العائذ بعفوك من سخطك ، وبرحمتك من غضبك .

يا حبيب الأوّابين ، يا من لا يكديه[1] الإعطاء ، يا ذا المن والآلاء ، زدني بالثقة منك وصْلةً ، واجعل قِراي[2] عتق رقبتي ، وأقرر عيني برضاك .

قال : ورأيتها بالموقف ـ علىٰ جبل عرفات ـ وهي تقول :

بهظتني[3] الآثام يا سيد الأنام ، كحلت عيني بملمول الحُزن ، فوعزّتك لا نعمتُ بضحك أبداً حتىٰ أعلم أين قراري ؟ وإلىٰ أين تصير داري ؟

فلما رأت أيدي الناس مبسوطةً للدعاء وقالت :

يا قرة عيني وعيون الأبرار ، يلتمسون نائلك ويرجون فضلك .

فلما رجعوا وضعت خدها وصرخت : انصرف الناس ولم أشعر قلبي منك اليأس .

* وقال وهيب بن الورد : بينما امرأة في الطواف ذات يوم وهي تقول :

يا رب ، ذهبت اللذات ، وبقيت التبعات .

يا رب سبحانك ، وعزتك إنك لأرحم الراحمين ، يا رب مالك عقوبة إلا النار .

فقالت صاحبة لها كانت معها :

يا أخيّة ، دخلتِ بيت ربك اليوم ؟

قالت : والله ما أرىٰ هاتين القدمين أهلاً للطواف حول بيت ربي ،

---

(١) أي : لا يفقره ، ولا يقلل من خزائنه شيئاً .

(٢) أي : ضيافتي .

(٣) أي : أثقلتني .

فكيف أراهما أهلاً أطأ بهما بيت ربي ؟ وقد علمت حيث مشتا إلىٰ أين مشتا!!

* وقال إبراهيم بن مسلم المخزومي : وقفت امرأة متعبدة في جوف الليل ، فتعلقت بأستار الكعبة ، ثم بكت وقالت :

يا كريم الصُّحبة ، ويا حسن المعونة ، أتيتك من شقة بعيدة متعرضة لمعروفك الذي وسع خلقك ، فأنلني من معروفك معروفاً تُغنيني به عن معروف من سواك ، يا أهل التقىٰ ويا أهل المغفرة .

قال : ثم صرخت صرخةً سقطت لوجهها ، فحُملت مغشياً عليها!!

* وقال أبو سعيد الأزرق الباهلي :

دخلت الطواف ليلاً ، فبينا أنا أطوف وإذا بامرأةٍ في الحجر ملتزمة للبيت قد علا نشيجها ، فدنوت منها وهي تقول :

يا من لا تراه العيون ، ولا تخالطه الأوهام والظنون ، ولا تغيّره الحوادث ، ولا يصفه الواصفون .

يا عالماً بمثاقيل الجبال ، ومكاييل البحار ، وعدد قطر الأمطار ، وورق الأشجار ، وعدد ما أظلم عليه الليل وأشرق عليه النهار ، لا تُواري منه سماءٌ سماءً ، ولا أرضٌ أرضاً ، ولا جبل ما في وعره ، ولا بحرٌ ما مقرّه .

أسألك أن تجعل خير عمري آخره ، وخير أيامي يوم ألقاك ، وخير ساعاتي مفارقة الأحباء من دار الفناء إلىٰ دار البقاء التي تُكرم فيها من أحببت من أوليائك ، وتُهين فيها من أبغضت من أعدائك .

أسألك إلهي عافيةً جامعةً لخير الدنيا والآخرة ، مَنّاً منك عليّ ، وتطوُّلاً يا ذا الجلال والإكرام .

* وقال أبو عبد الله المكي أبو محمد : كانت (حبيبة العدوية) إذا صلّت العتمة قامت علىٰ سطحٍ فشدت عليها درعها وخمارها فقالت :

إلهي ، غارت النجوم ، ونامت العيون ، وغلّقت الملوك أبوابها ، وبابك مفتوح ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، وهذا مقامي بين يديك .

فإذا كان السَّحر قالت :

اللهم ، وهذا الليل قد أدبر ، وهذا النهار قد أسفر ، فليت شعري هل قبلتَ مني ليلتي فأهنأ ، أم رددتها عليّ فأعزّىٰ ؟

فوعزتك ، لهذا دأبي ودأبك أبداً ما أبقيتني .

وعزتك ، لو انتهرتني ما برحتُ من بابك ولا وقع في قلبي غير جودك وكرمك .

* وقال سعيد الأفريقي : كنت ببيت المقدس مع أصحابٍ لي في المسجد ، فإذا أنا بجارية عليها درع شعر وخمار من صوف ، فإذا هي تقول :

إلهي وسيدي ، ما أضيق الطريق علىٰ من لم تكن دليله ، وأوحش خلوة من لم تكن أنيسه .

فقلت : يا جارية ، ما قطع الخلق عن الله عز وجل ؟

قالت : حبّ الدنيا إلا أن لله عز وجل عباداً أسقاهم من حبّه شربةً فولهت قلوبهم فلم يحبوا مع الله غيره ، ثم قالت تنشد :

تـزوّد قـرينـاً مـن فعـالـك إنمـا قرينُ الفتىٰ في القبر ما كان يعملُ
ألا إنمـا الإنسـان ضيـفٌ لأهلـه يقيم قليلاً عندهم ثم يرحلُ[1]

---

(١) يراجع الجزء الرابع من صفوة الصفوة ففيه الكثير من أمثال هذه القصص .

الفصل الرابع

المرأة.. والقرآن الكريم

حينما أمر الله تعالىٰ عباده أن يقرؤوا القرآن الكريم ، وينظروا فيما فيه ، ويفهموا معانيه وأحكامه و. . . ، لم يكن ذلك خاصاً بالذكور دون الإناث!!

بل إن كلاهما مأمور بذلك ، وقد سطر التاريخ قصصاً كثيرة في وقوف النساء عند القرآن الكريم ، والبكاء عند سماعه ، وتفهُّم مراميه ، لكن سنكتفي بالقصة المشهورة وهي قصة المتكلمة بالقرآن :

روىٰ الحافظ أبو حاتم البستي (ت ٣٥٤ هـ) : أنبأنا عمرو بن محمد الأنصاري ، حدثنا الغلابي ، حدثنا إبراهيم بن حبيب ، حدثنا الأصمعي قال :

بينما أنا أطوف بالبادية إذا بأعرابية تمشي وحدها علىٰ بعير لها ، فقلت : يا أمة الجبار من تطلبين ؟

فقالت : ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

[الأعراف : ١٨٦] .

قال : فعلمت أنها قد أضلت أصحابها ، فقلت لها : كأنك قد أضللت أصحابك ؟

قالت : ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ ﴾ [الأنبياء : ٧٩] .

فقلت لها : يا هذه من أين أنتِ ؟

قالت : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ [الإسراء : ١] .

فعلمت أنها مقدسية ـ من بيت المقدس ـ ، فقلت لها : كيف لا تتكلمين ؟

فقالت : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : ١٨] .

قال بعض أصحابي : ينبغي أن تكون هذه من الخوارج .

فقالت : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

فينما نحن نماشيها إذا رُفعت لنا قباب وخيم ، فقالت :

﴿ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل : ١٦] .

قال : فلم أفطن لقولها ، فقلت : ما تقولين ؟

فقالت : ﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ ﴾

[يوسف : ١٩] .

قلت : بمن أصوِّت ، وبمن أدعو ؟

فقالت : ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ ﴾ [مريم : ١٢] . ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ ﴾ [مريم : ٧] ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [ص : ٢٦] .

قال : فإذا نحن بثلاثة أخوة كاللآلىء ، فقالوا : أمَّنا ورب الكعبة ، أضللناها من ثلاث .

فقالت : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾

[فاطر : ٣٤] .

فأومأت إلىٰ أحدهم فقالت :

﴿ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ ﴾ [الكهف : ١٩] .

فلت : إنها أمرتهم أن يزودونا ، فجاؤوا بخبز وكعك .

قلت : لا حاجة لنا في ذلك ، فقلت للفتية : من هذه منكم ؟

قالوا : هذه أمنا ما تكلمت منذ أربعين سنة إلا من كتاب الله مخافة الكذب!!

فقالت : ﴿ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [الشورىٰ : ٢٣] .

قال : فعلمت أنها شيعيّة ، فانصرفتُ[1] .

* * *

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء : ٤٩ـ٥٠ .

الفصل الخامس

المرأة.. والخوف من الله تعالىٰ

ومن مظاهر عبودية الإنسان لله تعالىٰ ، خوفه منه ، ومراقبته له ، وشوقه إليه ، وهذا الأمر لم ينفرد به الذكور دون الإناث ، إنما سجل التاريخ قصصاً كثيرة من تاريخ السلف ، من ذلك مثلاً :

* السيدة عائشة رضي الله عنها كانت من شدة خوفها من الله تعالىٰ كثيراً ما تردد : وددت أني كنت نسياً منسياً ، وودت أني شجرة أعضد[1] ، وددت أني لم أخلق .

وكانت إذا مرت بشجرة قالت : يا ليتني كنت ورقةً من ورق هذه الشجرة!!

وكانت إذا قرأت في القرآن الكريم ، ومرَّت بآيات التخويف والعذاب وأهوال يوم القيامة بكت حتىٰ يُسمع بكاؤها ، وعندما قرأت ذات يوم قوله تعالىٰ :

﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الطور : ٢٧] .

قالت : ربّ منّ عليّ وقني عذاب السموم[2] .

---

(١) أي : أُقطع .

(٢) الزهد للأمام أحمد بن حنبل : ١٦٤ـ١٦٥ .

* وأورد الإمام ابن الجوزي طائفة من أحوالهن ، من ذلك :

قال محمد بن الحسين : حدثني صاحبٌ لي من البصريين قال : بكت (مطيعة) أربعين عاماً ، فعوتبت علىٰ كثرة البكاء ، فقالت : لا أزال أبكي حتىٰ أعلم علىٰ أيّ الحالين أنا عند الله ؟!

* وقيل للحسن : يا أبا سعيد ، إن ههنا امرأة يقال لها (بَرْدة) قد فسدت عيناها من البكاء ، فدخل عليها ، فقال لها : يا بردة ، إن لبدنك عليك حقاً ، وإن لبصرك عليك حقاً ، قالت : يا أبا سعيد ، إن أكن من أهل الجنة ، فسيبدلني الله بصراً خيراً من بصري ، وإن أكن من أهل النار فأبعد الله بصري!!

* وقال أبو الوليد رياح بن أبي الرَّاح العبدي :

ما رأيت قط مثل (أمية بنت أبي المورّع الموصلية) وكانت من الخائفين ، وكانت إذا ذكرت النار قالت :

أُدخلوا النار ، وأكلوا من النار ، وشربوا من النار ، وعاشوا!!

ثم تبكي ، وكان بكاؤها أطول من ذلك ، وكانت وكأنها حبَّة علىٰ مِقلىٰ ، وكانت إذا ذكرت النار ، بكت وأبكت دماً ، وما رأيت أحداً أشد خوفاً ولا أكثر بكاءً منها!!

* وقال أبو القاسم بن سعيد : سمعت صالحاً المريُّ يقول :

رأيت (ريحانة المجنونة) فسلّمت عليها ، فقالت لي : يا صالح اسمع :

بوجهك لا تعذبني فإني ... أؤمِّل أن أفوز بخير دار
وأنت مجاور الأبرار فيها ... ولولا أنت ما طاب المزار

وقال الرَّبيع : بتُّ أنا ومحمد بن المنكدر وثابت البناني عند (ريحانة

المجنونة) بالأُبُلّة[1] ، فقامت أول الليل وهي تقول :

قام المحب إلىٰ المؤمل قومةً كـاد الفـؤادُ مـن السـرور يطيـرُ

فلما كان جوف الليل سمعتها تقول أيضاً :

لا تأنسنَّ بمن تُوحشك نظرتُه فتُمنعـنَّ مـن التـذكـار فـي الظُّلـمِ
واجهد وكدَّ وكن في الليل ذا شجنٍ يسقيك كأس وداد العزّ والكرم

قال : ثم نادت : واحرباه ، واسلباه!

فقلت : مم ذا ؟ فقالت :

ذهـب الظـلام بـأنسـه وبـأُلفـه ليـت الظـلام بـأُنسـه يتجـدَّدُ[2]

* وأما مراقبة الله تعالىٰ :

ففي ذلك قصصٌ كثيرةٌ ، منها ما رواه الإمام السيوطي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ :

* عن ابن جريج قال :

أخبرني من أصدِّقه ، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، بينما هو يطوف ـ أي في أسواق المدينة ليتفقد أحوال الرعية ـ سمع امرأة تقول :

تطاول هذا الليل واسوّد جانبه وأرّقنـي أن لا خليـل ألاعبُـه
فـوالله لـولا الله تُخشـىٰ عـواقبـه لزحزح من هذا السرير جوانبُه

قال عمر رضي الله عنه : مالكِ ؟

قالت : أغزيتَ زوجي منذ أشهر ـ أي أرسلته إلىٰ الغزو ـ وقد اشتقت إليه .

---

(١) هي بلدة في العراق ، قرب مدينة البصرة .

(٢) مقتطفات من صفة الصفوة : الجزء الرابع .

قال : أردتِ سوءاً ؟

قالت : معاذ الله .

قال : فاملكي عليك نفسك ، فإنما هو البريد إليه .

فبعث إليه ، ثم دخل علىٰ حفصة رضي الله عنها ـ ابنته ـ فقال : إني سائلك عن أمرٍ قد أهمني ، فافرجيه عني ، كم تشتاق المرأة إلىٰ زوجها ؟ فخفضت رأسها ، واستحيت .

قال : فإن الله لا يستحي من الحق .

فأشارت بيدها ثلاثة أشهر ، وإلا فأربعة أشهر .

فكتب عمر رضي الله عنه أن لا تُحبس الجيوش فوق أربعة أشهر[1] .

* وقصة الفتاة التي رفضت أن تخلط اللبن بالماء علىٰ عهد الفاروق عمر رضي الله عنه وذلك لا خوفاً من عمر إنما خوفاً من رب عمر ، قصة مشهورة ومبثوثة في كتب التراث الإسلامي[2] .

* وأما بهن لله سبحانه وتعالىٰ :

ففيه العجب العجاب ، وقد أورد الإمام ابن الجوزي قصصاً كثيرة في ذلك ، منها :

عن محمد بن بكّار قال : كانت عندنا بمكة امرأة عابدة ، فكانت لا تمر بها ساعة إلا وهي صارخة ، فقيل لها يوماً : إنا لنراك علىٰ حال ما نرىٰ غيرك عليها ، فإن كان بك داء عالجناك .

قال : فبكت وقالت : من لي بعلاج هذا الداء ؟ وهل أقرح قلبي إلا التفكّر في نيل معالجته ؟ أوليس عجيباً أن أكون حيّة بين أظهركم وفي قلبي

---

(١) تاريخ الخلفاء : ١٤١ .

(٢) يراجع سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الحكم : ٢٢ .

من الاشتياق إلىٰ ربي عز وجل مثل شعل النار التي لا تُطفأ حتىٰ أصير إلىٰ الطبيب الذي عنده بُرْءُ دائي وشفاء قلبي ، قد أنضجه الأحزان في هذه الدار التي لا أجد فيها علىٰ البكاء مُسْعِداً ! !

* وأما (عُفيرة العابدة) فلها أحوال غريبة :

قال يحيىٰ بن بسطام : دخلت مع نفرٍ من أصحابنا علىٰ (عفيرة) ، وكانت قد تعبّدت وبكت حتىٰ عميت ، فقال بعض أصحابنا لرجلٍ جنبه :

ما أشد العمىٰ علىٰ من كان بصيراً !

فسمعت عفيرة فقالت له : يا عبد الله ، عمىٰ القلب ، والله ، عن الله ، أشدّ من عمىٰ العين عن الدنيا ، والله ، وددتُ أن الله وهب لي كُنه محبته ، وأنه لم تبق مني جارحة إلا أخذها ! !

وذات يوم ، قال روح بن سلمة الورّاق لعفيرة العابدة : بلغني أنك لا تنامين الليل ، فبكت ، ثم قالت : ربما اشتهيتُ أن أنام ، فلا أقدر عليه ، وكيف ينام أو كيف يقدر علىٰ النوم من لا ينام عنه حافظاه ليلاً ولا نهاراً ؟ !

* وأما السيدة رابعة العدوية :

تلك المرأة التي وُلدت في البصرة عام (٩٥ هـ) في كوخ من أكواخ الفقراء ، وبعد برهة مات والدها ، فأخذها أحد تجار الرقيق وباعها إلىٰ رجل غليظ القلب ، فما هي حيلتها أمام هذا الأمر ؟ لا شيء سوىٰ الشكوىٰ إلىٰ الله تعالىٰ ، وذات يوم وهي تناجي ربها سمعت صوتاً لم تر مصدره ، يقول لها : لا تحزني يا رابعة ، ففي يوم الحساب ، يتطلع المقربون في السماء إليك يحسدونك علىٰ ما تكونين فيه !

لكن كان سيدها يغلظ عليها ويقسو إلىٰ أن استيقظ ذات يوم في منتصف الليل فسمعها تقول :

إلهي أنت تعلم أن قلبي يتمنىٰ طاعتك ، ولو كان الأمر بيدي ما انقطعت لحظة من مناجاتك وخدمتك ، لكنك تركتني تحت رحمة هذا المخلوق القاسي من عبادك .

فما كان من سيدها إلا أن رقَّ قلبه لذلك ، فخيَّرها بين أن تعيش معه حرة ، وبين أن تكون حرّة تذهب إلىٰ أين تشاء ، فاختارت الوحدة والعزلة عن الناس ، والتجأت إلىٰ كوخها تعبد الله وتناجيه ، فانسابت الحكمة علىٰ لسانها ، وكان من ذلك : أن سألها رجل ذات يوم قائلاً : سليني حاجتك ـ وكان الرجل غنياً ـ فقالت : إني لأستحي أن أسأل الدنيا من يملكها ، فكيف أسألها من لا يملكها .

وأكثرت رابعة من البكاء ، ومن الحنين إلىٰ لقاء الله ، ومن الخوف من الله تعالىٰ ، ومن الحب لله ، ولذلك يروىٰ عنها أنها كانت تقول :

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ... هذا لعمري في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته ... إن المحب لما يحب مطيع!

وعندما سألها الإمام سفيان الثوري ـ رحمه الله تعالىٰ ـ قائلاً : لكل عقد ـ أي عقيدة أو إيمان ـ شريطة ـ شرط ـ ، ولكل إيمان حقيقة ، فما حقيقة إيمانك يا رابعة ؟!

فأجابت : ما عبدته خوفاً من ناره ، ولا حبّاً لجنته ، فأكون كالأجير السوء ، إن خاف عمل ، بل عبدته حباً له وشوقاً إليه!!

لقد عاشت مع الناس بالجسد ، لكن روحها كانت تهيم في عالم الحب الإلهي ، عرف ذلك من عرف ، وجهله من جهل ، ولذلك كانت تقول :

إني جعلتك في الفؤاد محدثي ... وأبحت جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للجليس مؤانس ... وحبيب قلبي في الفؤاد أنيس

وكانت تترنم بهذا الأبيات ، وهي تخاطب الخالق البارىء سبحانه وتعالىٰ :

أحبك حبين حب الهوىٰ ... وحب لأنك أهلٌ لذاكا
فأما الذي هو حب الهوىٰ ... فشغلي بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنت أهل له ... فكشفك لي الحجب حتىٰ أراكا
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ... ولكن لك الحمد في ذا وذاك

وهكذا بقيت طيلة حياتها التي جاوزت (الثمانين) ـ مع الله ، حباً له ، وخوفاً منه ، ومراقبة له ، وكانت دائمة الذكر للموت ، وذلك ما روته خادمتها (عبدة بنت أبي شوال) قالت : كانت رابعة تصلي الليل كله ، فإذا طلع الفجر هجعت في مصلاها هجعة خفيفة حتىٰ يسفر الفجر ، فكنت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدها وهي فزعة :

يا نفس لم تنامين ؟

وإلىٰ كم تنامين ؟

يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها إلا لصرخة النشور ! !

قالت : فكان هذا دأبها دهرها حتىٰ ماتت ، فلما حضرتها الوفاة دعتني فقالت :

يا عبدة لا تؤذِيني ـ أي لا تخبري بموتي أحداً ـ وكفنيني في جبتي هذه ، جبة من شعر كانت تقوم فيها إذا هدأت العيون[1] .

* * *

(١) هذه حال واحدة من النساء ، عاشت لله ، ومع الله ، وفي ظلال محبة الله ، فهل أثر عليها أنها ليست من الذكور ، وأنها من الإناث ؟! .